الفصل السادس

الاسترداد

يبدو أن الجنوب الغربي الأمريكي يعود ببطء إلى الولاية القضائية المكسيكية بدون إطلاق طلقة واحدة.[1]

- من جريدة إكسيلسوار - الصحيفة القومية للمكسيك.

في العام ١٨٢١، دعت المكسيك المستقلة حديثا الأمريكيين إلى الاستقرار في مقاطعتها الشمالية من تكساس -بشرطين: يجب على الأمريكيين أن يعتنقوا الكاثوليكية الرومانية، ويجب عليهم أن يُقسموا قَسم الولاء للمكسيك. وقبِل الآلاف من الناس هذا العرض. ولكن، في العام ١٨٣٥، وبعد أن استولى على السلطة قائد مستبد، هو الجنرال سانتا آنّا، ثار أهل تكساس، بعد أن سئموا من حلف أيمان الولاء وتغيير الدين تغييراً زائفا، وصار عددهم الآن يفوق عدد المكسيكيين في تكساس بنسبة عشرة إلى واحد، فثاروا وطردوا الحامية المكسيكية الصغيرة لتعود أدراجها عبر نهر ريو غراند.

قاد سانتا آنا جيشا نحو الشمال لاسترداد مقاطعته المفقودة. وفي إرسالية تبشيرية دعيت آلامو ذبح سانتا آنا أول ثوار قاوموه.

ثم أعدم أربعمائة تكساني استسلموا له عند غولياد ولكن سانتا آنا وقع في كمين على ضفاف نهر سان جاسنتو. فذبح جيشه، ووقع هو في الأسر. وطالب التكسانيون بإعدامه على ما اقترف من مذبحة في ألامو، ولكن سام هوستون كانت لديه فكرة أخرى. فقدم لذلك الدكتاتور عرضا: حياتك في مقابل تكساس. فوقع سانتا آنا، وحصلت تكساس على استقلالها. وفي آخر يوم له في منصبه اعترف آندرو جاكسون بجمهورية النجمة الوحيدة لملازمه القديم الذي كان قد قاد تنيسيّ هيكوري العجوز(*) في مذبحة للهنود الحمر ١٨١٤ الرد سُتِكس في موقع هورس شو بند.

بعد ثمانين عاما، وفي ساعاته الأخيرة في المنصب، قرر الرئيس جون تايلور أن يكتب صفحته الخاصة في التاريخ بإلحاق جمهورية تكساس بالاتحاد، مانعا بذلك هذا الشرف عن جيمس كي. بولك، الذي كان مشمولا بحماية وعطف جاكسون، وكان بولك قد كسب البيت الأبيض على أساس تعهده بإدخال تكساس إلى الاتحاد. والمكسيك المغضبة الآن نازعت ادعاء الولايات المتحدة لكل الأرض الواقعة شمال نهر ريو غراند. ولمساندة هذا الادعاء أرسل بولك الجنرال زاكاري تايلور إلى الضفة الشمالية من النهر. وعندما

(*) سام هيوستون كان في معركة هورس شو بند على رأس أهل تنسي تحت آندرو جاكسون وكان لقبه هيكوري العجوز.

عبر الجنود المكسيكيون وأطلقوا النار على دورية أمريكية، مسيلين الدم الأمريكي بذلك على ما كان يدعي بولك بأنها أرض أمريكية، طلب إعلاناً سريعا للحرب من الكونجرس وحصل على طلبه. وبحلول العام ١٨٤٨ كان جنود بأسماء مثل غرانت، ولي، وماكليلان في مدينة مونتيزوما. وأجبرت المكسيك المهانة على أن تتنازل عن كل تكساس، والجنوب الغربي، وكاليفورينا. ولتهوين ألم البتر أعطت الولايات المتحدة للمكسيك خمسة عشر مليون دولار.

غلى المكسيكيون بالحقد والاستياء. وفي العام ١٩١٠ بدأت الاضطرابات مجددا. وبعد ثورة كانت موجهة ضد الكنيسة وضد الأمريكيين، عومل البحارة الأمريكيون بعنف وقبض عليهم في مدينة تامبيكو. وأمر ويلسون قوات من المارينز الأمريكيين أن تحتل مدينة فيرا كروز إلى أن يطلق المكسيكيون إحدى وعشرين طلقة تحية لعلم الولايات المتحدة. وكما شرح ويلسون للسفير البريطاني فقال: "سوف أعلم الأمريكيين الجنوبيين بأن ينتخبوا رجالا طيبين."[٢] وعندما قاد قاطع الطرق بانشو فيللا غارة قاتلة على نيومكسيكو في العام ١٩١٦ أرسل ويلسون الجنرال بيرشنغ وقوات قوامها عشرة آلاف لتقوم بالتعليم.

وعلى الرغم من سياسية حسن الجوار من الرئيس روزفلت، فإن الرئيس كارديناس أمم، في العام ١٩٣٨، شركات الزيت

الأمريكية في يوم ما يزال موضع احترام في تاريخ المكسيك. وولدت بيمكس، شركة البترول المكسيكية وهي احتكار حكومي سيصطدم مع أوبك في العام ١٩٩٩ لتصعد أسعار الزيت إلى خمسة وثلاثين دولارا للبرميل لسلب الأمريكيين الذين قادوا كفالة قيمتها خمسون بليون دولار لإنقاذ المكسيك المفلسة في العام ١٩٩٤. وهذا يذكر المرء بجواب السياسي الإيطالي كافور عندما سئل عن الهدف الدبلوماسي لأمته الموحدة في العام ١٨٥٩ وقال: "لندهش العالم بنكراننا للجميل".[٣]

ما المغزى من هذا التاريخ؟ إن للمكسيك ظلامة تاريخية ضد الولايات المتحدة وهي ظلامة يشعر بها شعب المكسيك شعورا عميقا. فهم يعتقدون أننا سلبنا من بلادهم نصف أرضها عندما كانت المكسيك فتية وضعيفة. وهكذا فهناك تباينات عميقة في المواقف نحو أمريكا بين المهاجرين القدامى من أيرلندا، وإيطاليا، وأوروبا الشرقية، وبين المهاجرين اليوم من المكسيك. ومع وجود الخمس تماما من كل أسلاف شعوب المكسيك الآن في الولايات المتحدة، ومع مجيء ما يصل إلى مليون نسمة كل عام، فإننا نحتاج إلى أن نفهم التباينات الموجودة بين المهاجرين القدامى والمهاجرين الجدد، وبين أمريكا الأمس وأمريكا اليوم.

١- الأرقام التي تتدفق من المكسيك إلى الولايات المتحدة هي أرقام أكبر من أي موجة تأتي من أي بلد آخر في مثل هذا الزمن القصير. وفي التسعينيات من ١٩٩٠ وحدها، نما عدد الناس الذين ينحدرون من أسلاف مكسيكيين في الولايات المتحدة بنسبة (٥٠٪) خمسين بالمائة ووصلوا واحدا وعشرين مليون نسمة، وهذا الرقم لا يشمل ستة ملايين هسباني رفضوا أن يخبروا القائمين على الإحصاء عن بلد المنشأ لهم. والأمريكيون المكسيكيون متمركزون كذلك في الجنوب الغربي في الولايات المتحدة، على الرغم من أن الآباء المؤسسين أرادوا للمهاجرين أن ينتشروا بين السكان ليضمنوا استيعابهم وتمثلهم.

٢- والمكسيكيون لم يأتوا من ثقافة أخرى وحسب. ولكن الملايين منهم كذلك من عرق آخر. ويعلمنا التاريخ والخبرة أن الأعراق المختلفة أصعب استيعابا وتمثلا بكثير. إن الملايين الستين من الأمريكيين الذين يزعمون أصولا ألمانية لأسلافهم هم مستوعَبون و متمثَّلون على نحو كامل، بينما الملايين من أفريقيا وآسيا ما يزالون لا يشاركون مشاركة تامة في المجتمع الأمريكي.

٣- الملايين من المكسيكيين هم هنا بشكل غير مشروع. لقد خالفوا القانون الخاص بالدخول إلى الولايات المتحدة، وهم يخالفون

القانون بوجودهم هنا. وفي كل عام، يوقف (١,٦) مليون وستمائة ألف غريب غير شرعي، وكلهم تقريبا يحاولون اختراق حدودنا الجنوبية النازفة.[٤]

٤- وعلى خلاف المهاجرين القدامى الذين رفعوا أيديهم بالوداع إلى الأبد لبلادهم الأصلية عندما صعدوا على ظهر السفينة، فبالنسبة للمكسيكيين، فإن البلد الأم هي في الجوار عند الباب التالي. والملايين منهم لا رغبة لديهم في تعلم اللغة الإنجليزية أو في أن يصيروا مواطنين. أمريكا ليست وطنهم، والمكسيك وطنهم، وهم يرغبون في البقاء مكسيكيين يفخرون بذلك. لقد جاءوا هنا للعمل. وأفضل من أن يُستوعبوا هو أن يخلقوا تيوانا صغيرة (Tijuanas)(*) في المدن الأمريكية، بالضبط مثلما صنع الكوبيون هافانا الصغيرة في ميامي. أمريكا وحدها فقط هي التي تستضيف عددا من الناس من أصول مكسيكية يبلغ عشرين ضعفا لمن لهم أصول كوبية. ولهم محطات إذاعية خاصة بهم، ومحطات تلفزة، وصحف، وأفلام، ومجلات، وبهذا فإن الأمريكيين المكسيكيين يخلقون ثقافة هسبانية منفصلة وعلى انفراد من الثقافة الواسعة لأمريكا. إنهم يتحولون إلى أمة داخل أمة.

(*) تيوانا في الأصل مدينة مكسيكية في أقصى الشمال الغربي من المكسيك (السكان في ١٩٩٩ كانوا ٧٤٢٦٨٦). مركز للصناعة الخفيفة ومشهورة بسباقاتها ومصارعة الثيران يعبر الحدود عندها كل عام ما يصل إلى (١٤) أربعة عشر مليون سائح!!

٥- وموجات المهاجرين المكسيكيين تأتي أيضا إلى أمريكا مختلفة عن تلك التي جاء إليها المهاجرون القدامى. إن إيمانا بالحقوق العرقية والاستحقاقات الإثنية قد تجذر لدى أقلياتنا. وهذا الإيمان شجعته النخب الثقافية التي تحتقر بوتقة الانصهار وتبشر بأمجاد التعددية الثقافية. واليوم تشجع، الملاذات الإثنية للإبقاء على هوياتها المنفصلة، وفي الأحياء التي تتحدث الإسبانية تشيع الروح الإقليمية (الشوفونية). ويكتب غلين غارفن في مجلة ريزن: "النبض التكاملي للستينات من ١٩٦٠ ميت، والأناقة الليبرالية في التسعينات من ١٩٩٠ هي التفرقة، وهي تلبس لباس سياسات الهوية- الجماعة."[٥] ولو أن كالفن كوليدج(*) صرح اليوم بأن "أمريكا يجب أن تبقى أمريكية "[٦] لاتهم بجريمة البغضاء.

صاميويل بي هنتنغتون، مؤلف كتاب صراع الحضارات، يسمي الهجرة "القضية المركزية لعصرنا."[٧] وهو يقسم المهاجرين إلى "صابئين" جاؤوا ليندمجوا ويتم تمثلهم في حياتنا، وإلى "مقيمين مؤقتا"، جاؤوا ليعملوا لسنوات قليلة ثم يعودوا لأوطانهم. ويكتب هنتنغتون أن "المهاجرين الجدد" القادمين عبر الحدود الجنوبية "ليسوا صابئين وليسوا مؤقتين. إنهم يذهبون ويؤوبون بين كاليفورنيا

(*) كالفن كوليدج (١٨٧٢-١٩٣٣) الرئيس الثلاثون للولايات المتحدة (١٩٢٣-١٩٢٩).

والمكسيك، ويحتفظون بهويات مزدوجة ويشجعون أفراد عائلاتهم على اللحاق بهم"[٨] ويحذر هنتنغتون من (١,٦) مليون وستمائة ألف مهاجر يقبض عليهم كل عام وهم يعبرون حدود الولايات المتحدة فيقول:

> إذا عبر مليون جندي مكسيكي الحدود فإن الأمريكيين سوف يعاملون ذلك بوصفه تهديدا كبيرا لسلامتهم الوطنية ويتصرفون برد فعل وفقا لذلك. وغزو أكثر من مليون مكسيكي مدني كما يبدو أن (الرئيس المكسيكي فينست) فوكس يقترح سيكون تهديدا مضاهيا ضد الأمن الاجتماعي الأمريكي، وينبغي للأمريكيين أن يردوا ضده بقوة.
>
> الهجرة المكسيكية تحد فريد، ومزعج، ومخيف يلوح في الأفق لوحدتنا الثقافية، وهويتنا القومية، وعلى وجه الإمكان لمستقبلنا بوصفنا بلادا.[٩]

القادة الأمريكيون لا يردون "بقوة"، على الرغم من أن أحد الاستطلاعات التي أجراها زغبي وجد أن نسبة (٧٢٪) اثنين وسبعين بالمائة من الشعب تريد تخفيض الهجرة، واستطلاع من راسموسن في تموز يوليو ٢٠٠٠ وجد أن نسبة (٨٩٪) تسعة وثمانين بالمائة تريد اللغة الإنجليزية أن تكون هي اللغة الرسمية لأمريكا.[١٠] الشعب يريد الفعل، والنخب لا توافق ولا تفعل شيئا. وعلى الرغم من تبجحنا بكوننا "آخر قوة عظيمة في العالم، " فإن الولايات

المتحدة تفتقد الجلد لتدافع عن حدودها وتطلب، بدون اعتذار، بأن يتم تمثل المهاجرين ودمجهم في المجتمع.

ربما يستطيع حبنا المشترك للدولار أن يجسر الصدع الثقافي، وسوف نعيش بسعادة معا في ما سماه أحد المؤلفين الأمة العالمية الأولى.[11] ولكن العم سام يقوم بمخاطرة جهنمية في استيراد شتات مهاجرين ضخم من عشرات الملايين من أمة مختلفة عن أمتنا اختلافا كبيرا. وإذا كنا نرتكب خطأ فاحشا قاتلا، فهذا ليس قراراً نستطيع أن نعود إليه أبدا لننقحه. أطفالنا سوف يعيشون مع العواقب، والبلقنة، ونهاية أمريكا كما نعرفها. ويكتب هنتنغتون "إذا فشل الاستيعاب والتمثل، فإن الولايات المتحدة ستصير بلدا منصدعا فيه كل الإمكانات المحتملة للصراع الداخلي والانقسام الذي يتبع ذلك."[12] هل تستحق هذه المخاطرة أن نقوم بها؟ ولماذا نقوم بهذه المخاطرة؟

الأمم الغربية ومن قبل الآن مازالت تعيش في حالة تصدع حول الأثنية والثقافة. وإن الحركات الانفصالية قد مزقت الاتحاد السوفييتي، ويوغوسلافيا، وتشيكوسلوفيا، وهي لا تهدأ عن العمل في فرنسا، وإسبانيا، وإيطاليا. في العام ٢٠٠١ بدأت ألمانيا احتفالات دامت عاما عن بروسيا القديمة. وفي إنكلترا، يجري استبدال العلم البريطاني على سيارات الأجرة وألعاب كرة القدم لكأس العالم ووضع

صليب القديس جورج. والناس لا يتماهون إلا أقل فأقل بالدولة ـ الأمة، وأكثر فأكثر مع الأصحاب والأقارب. وقد تشكلت حتى الآن أحزاب مستقلة في آلبيرتا وفي ساسكاتشيوان، وأن نسبة (١٤٪) أربعة عشر بالمائة من كولومبيا البريطانية يفضلون الإنفصال عن كندا.[١٣]

لقد اقترح الرئيس فوكس قيام اتحاد أمريكي شمالي من كندا، والولايات المتحدة، والمكسيك مع فتح كامل للحدود أمام البضائع والناس في البلدان الثلاثة. وخلبت الفكرة وول جورنال ستريت.[١٤] ولكن الناتج المحلي الإجمالي للشخص الواحد في المكسيك البالغ خمسة آلاف دولار ليس إلا، هو كسر فقط من مثيله في أمريكا، وفجوة الدخل بيننا هي أوسع فجوة على الأرض بين دولتين كبيرتين جارتين.[١٥] ومنذ أن أجيزت نافتا في العام ١٩٩٣، هبطت الأجور الحقيقية في المكسيك بنسبة (١٥٪) خمسة عشر بالمائة. ونصف المكسيكيين الآن يعيشون في فقر، وثمانية عشر مليوناً يعيشون على أقل من دولارين في اليوم، بينما الحد الأدنى للأجر في الولايات المتحدة خمسون دولاراً في اليوم. افتح الحدود، ويمكن أن يتدفق الملايين عابرين الحدود إلى الولايات المتحدة في شهور. هل بلادنا لا شيء أكثر من مجرد اقتصاد؟

الصورة القديمة عندنا للشعب المكسيكي تراه شعبا وديعا، ومحافظا، ودودا، وكاثوليكا في معتقداته التقليدية وقيمه التقليدية.

وما يزال هناك الملايين من هؤلاء من العاملين بجد، والمتوجهين توجها عائليا، والوطنيين الأمريكيين من التراث المكسيكي، من الذين كانوا من أوائل من لبى نداء أمريكا لحمل السلاح. وإن أي رجل أو امرأة أو طفل من أي بلد أو قارة يمكن أن يكون أمريكيا طيبا. ونحن نعرف ذلك من تاريخنا.

ولكن التغيير السكاني الهائل، خصوصا في كاليفورنيا، حيث ربع السكان ولدوا أجانب وثلثهم تقريباً لاتين، قد ولّد نعرة إقليمية إثنية جديدة. وعندما لعب فريق كرة القدم الأمريكي مع المكسيك في مدرج لوس أنجليوس منذ بضع سنوات مضت، حُقِّرت "الراية المرصعة بالنجوم" (أي علم الولايات المتحدة أو نشيدها) واستُهزِئ بها، ومُزّق علم أمريكي ورُشِق الفريق الأمريكي ومشجعوه القليلون بالقنابل المائية، وزجاجات الجعة، والقمامة.[١٦]

ومنذ عامين أعلنت مدينة إل سينيزو في جنوب تكساس أن اللغة الإسبانية هي لغتها الرسمية وأمرت بأن تكتب كل الوثائق الرسمية باللغة الإسبانية وبأن تجري إدارة كل الأعمال التجارية في المدينة باللغة الإسبانية.[١٧] وصار أي تعاون مع سلطات الهجرة الأمريكية إساءة تؤدي للطرد. إن مدينة إل سينيزو، بالأمر الواقع، قد انفصلت عن الولايات المتحدة.

وفي السلطة التشريعية في ولاية نيو مكسيكو (New Mexico) (المكسيك الجديدة بالإنجليزية) في العام ٢٠٠١، قُدم قرار بإعادة تسمية الولاية لتكون "نويبو مكسيكو"، (NUEVO MEXCO) المكسيك الجديدة بالإسبانية)، وهو الاسم الأول الذي حملته الولاية قبيل أن تصير جزءا من الإتحاد الأمريكي. ولما هزم مشروع القانون، اقترح مقدمه، وهو العضو النائب ميغل غارسيا، للمراسلين أن "التعصب العرقي الخفي" قد يكون هو السبب -وهو التعصب العرقي نفسه، كما قال، الذي كان وراء تسمية الولاية نيو مكسيكو في البداية.[١٨]

إن روحاً من الانفصالية، والقومية، واسترداد الأرض عادت للحياة في الحي الأسباني. إن منظمة طلاب أمريكا اللاتينية تطالب بعودة الجنوب الغربي إلى المكسيك.[١٩] إن تشارلز تروكسيلو، وهو أستاذ دراسات تشيكانو في جامعة نيومكسيكو يقول: إن "أزتلان" جديدة وعاصمتها لوس أنجيلوس هي أمر لا مفر منه، وينبغي على المكسيكيين أن يسعوا لذلك بأي وسائل ضرورية.[٢٠]

وقال ريكي سيرا من الحرس الوطني الشيكانو (له علاقة بالأمريكيين -المكسيكيين أو ثقافتهم) بكلام طنان: "نحن نعيد استعمار أمريكا، ولذلك فهم خائفون منا. آن الأوان لنسترجع ما هو لنا."[٢١] وقال أحد قادة المتظاهرين في ويستوود وهو يشمت فرحا: "نحن هنا.. لنُري لوس انجيلوس البيضاء البروتستانتية أننا نحن

الأغلبية... وندعي بأن هذه الأرض أرضنا. لقد كانت دائما لنا ونحن ما نزال هنا... وإذا كان هناك من إنسان سيُرَحّل فسيكون أنتم."[٢٢]

خوسيه آنخل خوتيريز، وهو أستاذ العلوم السياسية في جامعة تكساس في آرلنغتون ومدير مركز الدراسات المكسيكية -الأمريكية في الجامعة ذاتها خاطب جمهورا في الجامعة وقال: "عندنا أمريكا بيضاء تشيخ. إنهم لا يلدون مواليد. إنهم يموتون. الانفجار واقع في سكاننا. إنهم يسلحون في سراويلهم من الخوف! وأنا أحب ذلك."[٢٣]

والآن قد يبدو هذا كلاماً عابراً، ولكن أصواتا أكثر سلطة تصدر النغمات ذاتها، وتتردد النغمات في الأحياء المكسيكية. ولاحظ القنصل العام المكسيكي خوسيه أوسونا في العام ١٩٩٨ وقال: "حتى وإن كنت أقول ذلك جادا في جزء منه، وهازلا في جزء آخر، فإني أعتقد أننا نمارس عملية استرداد كاليفورنيا."[٢٤] ودعا المشرع آرت توريس من كاليفورنيا القانون ١٨٧ الذي يقترح قطع الرعاية الاجتماعية عن الغرباء غير الشرعيين، دعاه باسم: "آخر شهقة في النزع الأخير من أمريكا البيضاء."[٢٥]

ويشمت ماريو أوبليدو فرحا ويقول: "كاليفورنيا ستكون ولاية مكسيكية. وسوف نسيطر على كل المؤسسات، وإذا كان الناس لا

يحبون ذلك، فعليهم أن يغادروا." وماريو أوبليدو هو رئيس العصبة المتحدة للمواطنين الأمريكيين اللاتينيين، والذي تلقى وسام الحرية من الرئيس كلينتون.[٢٦] وأخبر الرئيس المكسيكي إرنستو زيديللو الأمريكيين-المكسيكيين في دالس: "أنتم مكسيكيون، مكسيكيون تعيشون في شمال الحدود."[٢٧]

لماذا لا ينبغي على المهاجرين المكسيكيين أن يكون لهم ولاء لوطنهم أكبر من ولائهم لبلد تسللوا إليه كي يجدوا لهم عملا ببساطة؟ لماذا لا ينبغي للمكسيكيين القوميين والوطنيين أن يحلموا بالاسترداد؟

انظر في منظمة الطلاب، حركة طلاب الشيكانو لأزتلان، التي كان يرأس فرعها في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجيلوس منذ سنوات قليلة خلت شخص يدعى أنطونيو فيللاريغوسا، فهو كاد يكون عمدة لوس أنجيلوس في العام ٢٠٠١ بفارق جاء في حدود أربعين ألف صوت. ما هي خطة أزتلان التي توجد من أجلها حركة طلاب الشيكانو لأزتلان؟ بكلمات هذه الحركة ذاتها فإنها تهدف أن تعود فتطالب بأرض آبائهم التي سرقت في "الغزو الغريب (الأنجلو أمريكي) الوحشي لأراضينا."[٢٨]

> وقلبنا في أيدينا وأيدينا في التراب، فإننا نعلن استقلال أمتنا المختلطة (من الأوروبيين والسكان الأصليين). نحن شعب برونزي (اللون) وبثقافة برونزية. قبل العالم، وقبل كل شمال أمريكا، وقبل

كل إخواننا في القارة البرونزية، إننا أمة، إننا اتحاد من الشعوب الحرة، إننا الأزتلان.[٢٩]

وفي الخطة، "تنتمي أزتلان إلى أولئك الذين زرعوا البذور، وسقوا الحقول، وجمعوا المحاصيل، لا إلى الأجانب الأوروبيين. نحن لا نعترف بالحدود التي رسمتها النزوات على القارة البرونزية."[٣٠] إن شعار حركة طلاب أزتلان الشيكانو هو: "لعِرْقنا كل شيء. ولأولئك الذين هم من خارج عرقنا، لا شيء."[٣١]

وتطالب حركة أزتلان الولايات المتحدة "بالتعويض" عن العبودية الاقتصادية السابقة، والاستغلال السياسي، والتدمير الاثني والثقافي النفسي، وإنكار الحقوق المدنية والإنسانية."[٣٢] وتؤكد حركة الأزتلان أن "التحرير السياسي":

> لا يمكن أن يأتي إلا من خلال الفعل المستقل من طرفنا، لأن نظام الحزبين هو الحيوان نفسه برأسين وهو يتغذى من الحوض نفسه. حيثما نكن أكثرية فسوف نسيطر، وحيثما نكن أقلية فسوف نشكل جماعة ضغط، وقوميا نحن نشكل حزبا واحدا: عائلة العرق.[٣٣]

تصرح حركة أزتلان في دستورها أن رمزها الرسمي "سيكون هو الصقر بجناحيه المفرودين، وهو يحمل بمخلب ماكاويتل(*) ويحمل

(*) سلاح بدائي استخدمه السكان الهنود الحمر الأصليون ضد الغزاة من الأوروبين. وهو عبارة عن سيف عريض خشبي بمقبضين، وحافته محددة بصوان حاد كالشفرة.

حـزمة ديناميت بالمخلب الثاني وفي منقاره الفتيلة المشتعلة."[٣٤]

إن حركة طلاب أزتلان الشيكانو هي نسخة الشيكانو من التفوق الأبيض للأمة الآرية، إلا أنها تدعي أن لها فقط أربعمائة فرع في الجامعات عبر الجنوب الغربي حتى كورنل وآن آربور. وفي خطابتها عن "أمة هجين" (من الأوروبيين والسكان المحليين)، وعن "الشعب البرونزي" و"الثقافة البرونزية، " و "القارة البرونزية، " و"العرق فوق الجميع، " فإن هذه الحركة تكون عرقية ومضادة للأمريكيين بلا خجل. إن كون فيللاراغوسا قد استطاع أن يخوض حملة انتخابية من أجل منصب رئيس البلدية لثاني أكبر مدينة أمريكية بدون أن يكون عليه أن يشرح ارتباطه بمنظمة أزتلان ويتبرأ منها، يشهد على حقيقة هي أن وسائل الإعلام الأمريكية الكبرى ترهب أخلاقيا أي أقلية تستطيع أن تحرر أوراق اعتماد بوصفها ضحية للتميز الماضي.

وليس هناك من مكان كان فيه الترهيب الإثني أنجح منه في الجامعة. فبعد سنوات من الاحتجاجات المخربة من حركة طلاب أزتلان الشيكانو. قامت جامعة تكساس بتخفيض قيمة يوم استقلال تكساس. وفي العام ٢٠٠٠، عقدت الجامعة "مناسبة خاصة للخريجين لجمع المال لتستغل العطلة لتحصيل المال، في حين أنها فعليا لا تولي العطلة أي اعتراف عام بها."[٣٥]

وفي الوقت نفسه يستمر الغزو. فحدود أمريكا المكسيكية التي كانت نائمة في الماضي وتبلغ ألفي ميل هي الآن مسرح مواجهات يومية. وصارت المزارع في أريزونا مناطق تخييم مؤقتة ليليا لآلاف الغرباء، وهم الذين يقطعون الأسيجة ويتركون قطعان المواشي المسمومة وآثارا من الحطام في سفرهم شمالا في الأرض الوعرة. حتى الجيش المكسيكي يظهر ازدراءه. وقد أوردت وزارة الخارجية خمسة وخمسين تسللاً عسكرياً في خمس سنوات قبل الحادثة التي وقعت في العام ٢٠٠٠، عندما قامت حمولات من السيارات من أفراد الجيش المكسيكي بالدخول عبر سياج الأسلاك الشائكة، وأطلقت النار، وطاردت ضابطين راكبين وسيارة دورية حدود أمريكية.[٣٦] ويعتقد عملاء دورية الحدود أن بعض وحدات الجيش المكسيكي تتواطأ مع تجمعات المخدرات.

لقد صارت أمريكا قناة تصريف لسكان ينفجرون ممن لم تبق المكسيك قادرة على توظيفهم. ومع نمو سكان المكسيك بمعدل عشرة ملايين في كل عقد، لن يكون هناك أي نهاية للمسيرة الطويلة شمالا قبل أن يصير الجنوب الغربي الأمريكي هسبانيا بالكامل. وقد سلم السيناتور المكسيكي أدولفو زينسر بأن "السياسية الاقتصادية للمكسيك معتمدة على الهجرة غير المحدودة إلى الولايات المتحدة."[٣٧] وكان الأكاديمي الساخر من الأمريكان، "والمساند

الشيوعي في وقت مضى" خورخي كاستينادا كان قد حذر في مجلة أتلانتيك مونثلي، منذ ست سنوات، من أن أي جهد أمريكي لقطع الهجرة "سوف تجعل السلام الاجتماعي في... المكسيك أمرا لا يمكن الدفاع عنه... بعض الأمريكيين لا يحبون الهجرة، ولكن هناك القليل جدا مما يستطيعون فعله حيال ذلك."[٣٨] وتأخذ هذه الآراء وزنا إذا ما عرفنا أن السيناتور زينسر الآن هو مستشار الأمن القومي للرئيس فوكس بينما خورخي كاستينادا هو وزير خارجيته.

تحت قيادة فوكس وزنسر، وكاستينادا مالت السياسية المكسيكية إلى مساندة الداخلين غير الشرعيين للولايات المتحدة. وأقيم مكتب للمكسيكيين في الخارج لمساعدتهم على التهرب من حراس الحدود الأمريكيين في صحارى أريزونا وكاليفورنيا عن طريق تزويدهم "بحقائب البقاء" وفيها الماء، واللحم المجفف، والغرانولا، والتايلينول، وحبوب مضادة للإسهال، والأربطة، والواقيات الذكرية. وتوزع هذه الحقائب في أفقر مدن المكسيك، مع معلومات عن الكيفية التي يستطيع بها الداخلون غير الشرعيين أن يذهبوا إلى الخدمات الاجتماعية المجانية في كاليفورنيا، حيث لا تطرح أي أسئلة. وباختصار، فإن مكسيكو سيتي هي الآن تساعد وتحرض على غزو الولايات المتحدة، والرد السياسي للولايات المتحدة هو رد الصمت الخائف والشلل الأخلاقي.[٣٩]

وفي الوقت الذي يستمر فيه الغزو، ومع كون كاليفورنيا هي الجهة المقصودة المفضلة، قام عالم الاجتماع وليام فري بتوثيق هجرة خروج يقوم بها الأمريكيون الأفارقة والأمريكيون ?الإنجليز بالخروج من الولاية الذهبية بحثا عن مدن وبلدات تشبه تلك التي شبوا فيها.[٤٠] وهناك كاليفورنيون آخرون ينتقلون إلى المجتمعات المحددة بحدود. إن بلدا لا يستطيع أن يسيطر على حدوده لا يبقى حقيقة بلدا بعد ذلك، ولقد حذّرنا رونالد ريغان منذ حوالي عشرين سنة مضت.

والاهتمامات بشأن حدوث تغيير جذري في التركيبة الإثنية لأمريكا سميت اهتمامات لا أمريكية. ولكنها أمريكية بقدر ما كان بنيامين فرانكلين أمريكيا. وهو الذي سأل مرة: "لماذا ينبغي على بنسيلفانيا، وهي ولاية أسسها الإنجليز، أن تصير مستعمرة للغرباء الذين سيكونون بعد مدة قصيرة من الكثرة العددية بحيث يصيروننا ألمانا بدل أن نصيرهم إنجليزا...؟[٤١] ولن يكتشف فرانكلين أبدا مخاوفه كانت مبررة. لقد توقفت الهجرة الألمانية في أثناء حرب السنوات السبع.

لقد حذر الرئيس السابق تيودور روزفلت فقال: "إن الطريقة الوحيدة المستيقنة يقينا مطلقا لإيراد هذه الأمة موارد الخراب، ولمنع كل إمكانية لها لتستمر في كونها أمة مطلقا، ستكون هي السماح لها بأن تصير شبكة من القوميات المتناحرة.[٤٢]

الهجرة موضوع ضروري للحوار القومي، لأنه يدور حول من نكون بصفتنا شعبا. فالهجرة مثل الميسيسبي، في تدفقه اللامتناهي للماء المانح للحياة، أثرت أمريكا طوال تاريخنا. ولكن عندما يفيض الميسيسبي بفيضاناته على ضفافه فإن الخراب يمكن أن يكون ضخما. ومع ذلك، وبأوامر من أصحاب برنامج التصحيح السياسي فإن الهجرة، بوصفها قضية، مرفوعة من جدول البحث على الطاولة. إن "المحليين" فقط أو "المصابين بكره مرضي للأجانب" يستطيعون أن يتساءلوا عن السياسة التي تدخل بموجبها الولايات المتحدة للبلاد المزيد من الناس من ألوان، وعقائد، وثقافات، وحضارات مختلفة أكثر مما تدخل لبلادها جميعُ الأمم الأخرى على سطح الأرض مجتمعة. إن مياه النهر ترتفع إلى مستويات لم ير مثلها في تاريخنا. ماذا سيجري لبلادنا إذا لم تستطع سدود صد الفيضان أن تصمد؟

في أواخر ١٩٩٩، غادر هذا الكاتب تكسون وساق باتجاه الجنوب الشرقي إلى دوغلاس، مدينة الحدود في أريزونا ذات الثمانية عشر ألف نسمة والتي صارت الممر الرئيسي لغزو الولايات المتحدة. وفي شهر آذار مارس فقط، ألقت دورية الحدود الأمريكية القبض على سبعة وعشرين ألف مكسيكي يعبرون الحدود بشكل غير قانوني، ويقدر عدد الغرباء غير الشرعيين العابرين في شهر

واحد بعدد السكان الموجودين في دوغلاس زائدا ما يعادل نصف عددهم فوق ذلك.[٤٣]

وفي أثناء وجودي هناك زرت تيريزا موراي، وهي أرملة في الثانية والثمانين من عمرها وهي جدة تعيش في صحراء أريزونا التي ترعرعت فيها. وكان بيتها في مزرعتها محاطا بسياج من سلسلة مربوطة من الأسلاك الشائكة بارتفاع سبعة أقدام وعلى قمته لفات من السلك الحاد كالشفرات. وهناك قضبان حديدية على كل باب ونافذة وهي متصلة بأسلاك إلى جهاز إنذار. وتنام السيدة موراي ومعها مسدس عيار ٠,٣٢ موضوع على طاولتها قرب السرير، والسبب في ذلك هو أنها تعرضت للسطو ثلاثين مرة. كلاب حراستها ماتت، نزفت الكلاب حتى الموت عندما رمى أحدهم من فوق سياجها لحما يحتوي على زجاج مهشم. إن تيريزا موراي تعيش حياتها داخل سجن تحت أقصى درجات الأمن، في بيتها، وفي بلدها، لأن حكومتها تفتقر إلى الشجاعة الأدبية لتقوم بواجبها وتدافع عن حدود الولايات المتحدة الأمريكية.

إذا كانت أمريكا تعني شيئا، فهي تعني الحرية. ولكن كما تقول تيريزا موراي: "فقدت حريتي. لا أستطيع أبدا أن أغادر منزلي ما لم يكن عندي شخص يحرس البيت. كان من عادتنا أن نركب خيلنا بدون عائق عبر الحدود. ولدينا مكسيكيون يعملون في أملاكنا. لقد

كان العيش هنا عيشا طيبا. أما الآن فإنه جحيم. إنه جحيم واضح قديم."[٤٤]

وفي الوقت الذي تعيش فيه تيريزا موراي غير حرة، في وجود جهنمي، فإن الجنود الأمريكيين يدافعون عن حدود كوريا، والكويت، وكوسوفو. ولكن لا شيء في خطر عند تلك الحدود، وهي على بعد نصف محيط العالم، لمقارنته مع ما هو في خطر على حدودنا مع المكسيك التي تمر فوقها جيوش الليل وهي تمشي متثاقلة بلا نهاية نحو الشمال إلى المدن الكبرى لأمريكا، الجيوش الغازية تعود لوطنها، أما جيوش المهاجرين فلا تعود.

من الذي قتل تحالف ريغان؟

طوال ربع قرن، من عام ١٩٦٨ وحتى ١٩٩٢، كان الحزب الجمهوري يمتلك قفلا واقعيا على الرياسة. "فالأكثرية الجديدة" التي صنعها ريتشارد نيكسون وكررها رونالد ريغان أعطت الحزب الكبير القديم خمسة انتصارات في ستة انتخابات رياسية. وكان مفتاح النصر هو أنهم ألحقوا بالقاعدة الجمهورية كتلتين ديمقراطيتين وهما: الإثنيون الشماليون الكاثوليك، والبروتستانت البيض الجنوبيون. وقد أغرى السيد نيكسون هؤلاء الناخبين ليبتعدوا عن تحالف نيوديل بمناشداته للوطنية، وحقوق الشعب،

والمحافظة الاجتماعية. وأعطى النجاح هوامش حاسمة للحزب الكبير القديم في الولايات الصناعية، وفي "جنوب صلب" كان هو المعسكر القاعدة للحزب الديمقراطي منذ أبوماتوكس. تحالف نيكسون - ريجان هذا برهن على أنه لا يهزم تقريبا. كان يستطيع ماكفرن، ومونديل، ودوكاكيس أن يحمل نسبة (٩٠) تسعين بالمائة من أصوات الناخبين السود، ولكن مع أخذ الجمهوريين نسبة (٦٠) ستين بالمائة من أصوات الناخبين البيض، وهي التي كانت تمثل نسبة (٩٠) تسعين بالمائة من إجمالي الأصوات، لم يكن بد للحزب الكبير القديم من أن يأتي في القمة.

كان هذا إستراتيجية جنوبية. وفي الوقت الذي سمتها فيه وسائل الإعلام إستراتيجية لاأخلاقية، فإن الديمقراطيين ارتبطوا بدعاة العزل العرقي طوال قرن بدون رقابة مماثلة. لقد وضع روزفلت وأدلاي ستيفنسون دعاة العزل العرقي على تذاكرهم الانتخابية. وخارج ميسوري، وهي ولاية حدودية ذات تعاطفات جنوبية، وكانت الولايات الوحيدة التي أخذها أدلاي في العام ١٩٥٦ هي الولايات الديكسيقراطية(*) التي حملها لاحقا جورج والاس.

(*) ديكسيقراطية نسبة إلى مجموعة منشقة من الديمقراطيين في الجنوب شكلوا حزب حقوق الولايات في ١٩٤٨.

لم يسبق لنيكسون ولا لريغان أن ساند دعاة العزل العرقي. وكان نيكسون، بمنصبه نائبا للرئيس، مساندا للحقوق المدنية وكان في هذا أقوى من السيناتورين جون ف. كندي أو ليندون جونسون. ودور نيكسون في كسب مرور قانون الحقوق المدنية في العام ١٩٥٧ كان موضع ثناء في رسالة شخصية من الدكتور مارتن لوثر كنغ الذي حيا في نيكسون نائب الرئيس "العمل الدؤوب والشجاعة التي لا تهاب في السعي لجعل الحقوق المدنية حقيقة واقعة."[٤٥]

وطوال ربع قرن، ظل الديمقراطيون عاجزين عن التقاط قفل الحزب الكبير القديم على الرياسة لأنهم لم يستطيعوا أن يهزوا ويرخوا قبضة الجمهوريين على الصوت الأبيض. وباستثناء النصر الانتخابي الساحق الذي حققه ليندون جونسون في العام ١٩٦٤ لم يكسب الصوت الأبيض أي ديمقراطي منذ ترومان في ١٩٤٨ إن ما كسر قفل الحزب الكبير القديم على الرياسة كان هو قانون الهجرة في العام ١٩٦٥.

في أثناء أعمال الشغب المناوئة للسوفييت في برلين الشرقية في العام ١٩٥٣، تهكم برتولت بريخت، الكاتب المسرحي الشيوعي، وقال: "أليس من الأسهل... للحكومة أن تحل الشعب وتنتخب آخر؟"[٤٦] في السنوات الثلاثين السابقة، بدأت أمريكا باستيراد هيئة ناخبين جدد، وساند الجمهوريون بسعادة سياسة للهجرة مالت نحو

العالم الثالث، وهي الهجرة التي وسعت القاعدة الديمقراطية وأرخت القبضة التي أعطاها نيكسون وريغان للجمهوريين على رياسة الولايات المتحدة.

في العام ١٩٩٦، كوفئ الحزب الكبير القديم. وذهبت إلى كلينتون ست ولايات من أصل سبع ولايات فيها أضخم أعداد من المهاجرين وهي - كاليفورنيا، ونيويورك، وإلينوي، ونيوجيرسي، وماساتشوسيتس، وفلوريدا، وتكساس. وفي العام ٢٠٠٠ ذهبت خمس ولايات إلى غور، وكانت فلوريدا ولاية تساوى فيها الطرفان. ومن (١٥) الخمس عشرة ولاية التي أكثريتها من الذين ولدوا أجانب، خسر بوش (١٠) عشر ولايات. ولكن من الولايات العشر التي فيها أقلية من الذين ولدوا أجانب - مونتانا، وميسيسبي، ووايومنغ، وفيرجينيا الغربية، وداكوتا الجنوبية، وداكوتا الشمالية، وكارولاينا الجنوبية، وألاباما، وتنيسي، وأركانساس - اكتسح بوش كل الولايات العشر.

ومن بين الولايات التي فيها أكثر المهاجرين كانت ولاية تكساس فقط جمهورية بشكل موثوق. ولكنها الآن ذاهبة في طريق كاليفورنيا. في التسعينات من ١٩٩٠ استقبلت تكساس (٣,٢) ثلاثة ملايين ومائتي ألف مقيم جديد بوصفهم الحصة الهسبانية من سكان تكساس وارتفعت النسبة بسرعة من (٢٥) خمسة وعشرين

بالمائة إلى (٣٣) ثلاثة وثلاثين بالمائة.[٤٧] والهسبان الآن هم الجماعة الإثنية الكبرى في أربع من المدن الخمس الكبرى في تكساس: هيوستون، ودالاس، وسان أنطونيو، وإلباسو. وقال عنوان رئيسي حديث في نيويورك تايمز: "إن البيض غير الهسبان قد يصبحون قريبا أقلية في تكساس."[٤٨] ومع نزول السكان الأنجلو من نسبة (٦٠) ستين في المائة في ١٩٩٠ إلى نسبة (٥٣) ثلاثة وخمسين في المائة، فإن اليوم الذي يكون فيه البيض أقلية في تكساس لأول مرة منذ ما قبل ألامو هو يوم قريب. وتقول جريدة دالاس مورننغ نيوز: "التوقعات تبين أنه بحلول العام ٢٠٠٥ سيكون البيض أقل من النصف في تكساس."[٤٩]

أمريكا سائرة في طريق كاليفورنيا وتكساس. " في العام ١٩٦٠ كانت نسبة (٨٨,٦) ثمانية وثمانين وستة بالعشرة بالمائة من سكان الولايات المتحدة من البيض، وفي العام ١٩٩٠ كانت (٧٥,٦) خمسة وسبعين وستة بالعشرة بالمائة فقط -هبوط بنسبة (١٣) ثلاثة عشر بالمائة في ثلاثين عاما..] وبحلول العام ٢٠٢٠ [يمكن أن تهبط نسبة البيض إلى مستوى نسبة(٦١) واحد وستين بالمائة"[٣٠٣] هكذا يكتب بيتر بريملو من مجلة فوربس. ومع حلول العام ٢٠٥٠، فإن اليورو-أمريكيين، وهم أكبر حصة من هيئة ناخبي الحزب الكبير القديم وأخلصها، سيكونون أقلية، وذلك نتيجة لسياسة الهجرة التي كان

قد رعاها الجمهوريون. لم يكن جون ستيورات ميل على خطأ تماما عندما وصم المحافظين بتسميتهم "الحزب الغبي."[٥١]

الهسبان هم أسرع قطاع ينمو في سكان أمريكا. كانوا بنسبة (٦,٤) ستة وأربعة من العشرة بالمائة من سكان الولايات المتحدة في العام ١٩٨٠ ونسبة (٩) تسعة بالمائة مع حلول العام ١٩٩٠، وفي عام٢٠٠٠ أعلى من نسبة (١٢) اثني عشر بالمائة. ويقول جيفري باسل وهو عالم سكان من المعهد الحضري "معدلات الخصوبة الهسبانية أعلى بقليل نوعا من نسبتها عند السكان البيض أو السود. إنها عند مستويات عصر ازدهار المواليد في الخمسينات من ١٩٥٠"[٥٢] عند عدد (٣٥,٤) خمسة وثلاثين مليوناً وأربعة من عشرة يساوي عدد الهسبان الآن عدد الأفارقة الأمريكيين وهم يصيرون ديمقراطيين مثلهم أيضا في تفضيلاتهم الانتخابية. لقد خسر السيد بوش أصوات الأفارقة الأمريكيين بنسبة أحد عشر صوتا مقابل صوت واحد، ولكنه خسر الهسبان أيضا بنسبة صوتين مقابل صوت واحد.

في العام ١٩٩٦ عندما حمل كلينتون الأصوات اللاتينية بنسبة سبعين صوتا إلى واحد وعشرين صوتا، حمل في المرة الأولى الأصوات اللاتينية بنسبة واحد وتسعين صوتا إلى ستة أصوات.[٥٣] وكان رجال كلينتون واعيين بأن المهاجرين كانوا يستطيعون إعطاء

الديمقراطيين قفلهم الخاص على البيت الأبيض، لذلك عمل رجال كلينتون بلا هوادة على تجنيسهم. وفي العام نفسه حتى ٣٠ أيلول سبتمبر ١٩٩٦ فإن إدارة الهجرة والجنسية أدارت (١,٠٤٥,٠٠٠) مليونا وخمسة وأربعين ألف قسم أقسمها المهاجرون بوصفهم مواطنين جددا، وذلك بشكل سريع إلى درجة أن (٨٠,٠٠٠) ثمانين ألفا لهم سجلات إجرامية، - منهم (٦,٣٠٠) ستة آلاف وثلاثمائة من أجل جرائم خطيرة - انزلقوا ضمن المجنسين.[٥٤] وهذه فيما يلي أرقام المواطنين الجدد في كل عام من الأعوام الخمسة الماضية.

١٩٩٦	١,٠٤٥,٠٠٠
١٩٩٧	٥٩٨,٠٠٠
١٩٩٨	٤٦٣,٠٠٠
١٩٩٩	٨٧٢,٠٠٠
٢٠٠٠	[٥٥]٨٩٨,٣١٥٣٠٨

وتلقت كاليفورنيا ثلث هؤلاء المواطنين الجدد. وفي حين أن تسجيل البيض غير اللاتينيين هبط بنحو مائة ألف في كاليفورنيا في التسعينات من ١٩٩٠، فإن مليونا من اللاتينيين سجل فيها.[٥٦] والآن فإن الهسبان يشكلون نسبة (١٦) ستة عشر بالمائة من هيئة الناخبين في كاليفورنيا، وأعطوا غور الولاية مع وجود مئات الآلاف

من الأصوات للتوفير. ويقول المستشار الديمقراطي ويليام كاريك: "كلا الحزبين يحضر في احتفالات القسم ليحاول تسجيل ناخبين." ويوجد طاولة ديمقراطية وطاولة جمهورية. طاولتنا لديها الكثير من العمل. طاولتهم مثل مصلح غسالة المياتاج «أي نادرة العطب» (Maytag)[٥٧] إن كاليفورنيا التي تملك خمسة وخمسين صوتاً انتخابياً، والولاية الوطن لنكسون وريغان، صارت هي الآن ميدان القتل للحزب الكبير القديم.

التصويت في الاستفتاءات العامة في كاليفورنيا قد انقسم أيضا وفقا للخطوط الإثنية. في العام ١٩٩٤، كان الهسبان يحتشدون تحت أعلام مكسيكية، وعارضوا الاقتراح ١٨٧ لإنهاء الرعاية الاجتماعية للمهاجرين غير الشرعيين. وفي مبادرة الحقوق المدنية في كاليفورنيا في العام ١٩٩٦ صوت الهسبان للتفضيلات الإثنية. وفي العام ١٩٩٨ صوت الهسبان للإبقاء على التعليم مزدوج اللغة. وصوت الأنجلو أمريكان عكس ما سبق بأكثرية ساحقة.

ويعتقد رون أونز، أبو الاستفتاء العام على "الإنجليزية للأطفال" الذي أنهى التعليم مزدوج اللغة الذي تموله الدولة، يعتقد أن شغب لوس أنجيلوس في العام ١٩٩٢ قد يكون نقطة اللاعودة على طريق بلقنة كاليفورنيا.

خيوط الدخان المتصاعد من المباني المحروقة، واللقطات الفظيعة الطويلة التلفزيونية مزقت تمزيقا كاملا تقريبا الإحساس بالأمن لدى الطبقة الوسطى من أهل كاليفورنيا الجنوبيين. فجأة، انكشف القناع عن "كاليفورنيا متعددة الثقافات" السعيدة والمحبوبة جدا من المروجين المحليين المعززين للتنوع الثقافي، انكشفت عن أنها قاسية وخطرة. انها طوباوية سيئة من العالم الثالث.... والأعداد الكبيرة من اللاتينيين الذين قبض عليهم (ورحلوا على عجل) بسبب أعمال النهب جعلت البيض يلقون نظرة جديدة حذرة على الحدائقيين والمربيات الذين كانوا قبل أسابيع فقط يبدون لطفاء وموثوقيين للغاية. فإذا كانت لوس انجليوس المتعددة الثقافة قد انفجرت إلى فوضى مفاجئة، فما هو الأمن الذي يمكن أن يتوقعه البيض بصفتهم أقلية في كاليفورنيا غير بيضاء على نحو يتزايد؟[٥٨]

باستثناء اللاجئين من بلاد شيوعية مثل هنغاريا وكوبا، فإن المهاجرين ينجذبون بثقلهم نحو حزب الحكومة. والسبب الواضح: هو أن المهاجرين يحصلون من الحكومة - في المدارس المجانية لأطفالهم، وإعانات الإسكان، والرعاية الصحية - على أكثر مما يدفعون لها. وهم يصلون فقراء، ومعظمهم لا يجمع سريعا أرباحا رأسمالية، أو عقارات، أو دخولا يمكن أن تخضع للضرائب الاتحادية. فلماذا ينبغي للمهاجرين أن يساندوا حزبا جمهوريا، يخفض ضرائب هم لا يدفعونها، ضد حزب ديمقراطي سيوسع البرامج التي يعتمدون هم عليها؟

لقد كان الحزب الديمقراطي، بعد جزيرة إيلليس(*)، هو محطة الوقوف الأولى دائما للمهاجرين. والمولودون أجانب لا يبدؤون بالتحول إلى جمهوريين إلا بعد أن يبدؤوا بالتحرك إلى الطبقة الوسطى فقط، وهذا ما قد يستغرق جيلين . والديمقراطيون بتجنيسهم وتسجيلهم نصف مليون أو مليون مولود أجنبي في العام، فإنهم بعملهم هذا يقفلون الانتخابات الرياسية المستقبلية ويرمون المفتاح بعيدا. فإذا لم يعمل الحزب الكبير القديم شيئا ما نحو الهجرة الضخمة الجماعية، فإن الهجرة الضخمة الجماعية سوف تفعل شيئا ما نحو الحزب الكبير القديم - تحوله إلى أقلية دائمة في بيتنا لأحدث أقلية في أمريكا وهم الأنجلو أمريكان.

ومع تغير الشخصية الإثنية لأمريكا فإن السياسة تتغير. والمد الصاعد للهجرة يحول السياسة والقوة تحويلا طبيعيا إلى اليسار، وذلك بزيادة المطالب على الحكومة. والحصة التي تتوسع بسرعة من هيئة الناخبين الأمريكيين من أصول أفريقية وهسبانية دفعت وما تزال تدفع الحزب الكبير القديم إلى أن يذهب صامتا في العمل الإيجابي(**)

(*) جزيرة إيلليس: هي جزيرة في خليج نيويورك الأعلى جنوب غرب منهاتن. وكانت هي المحطة الرئيسية للمهاجرين إلى الولايات المتحدة من العام ١٨٩٢ إلى العام ١٩٤٣، وهي الآن جزء من المعلم الوطني لتمثال الحرية ومفتوحة للسواح وفيها متحف للهجرة.

(**) هو سياسة أو برنامج يسعى للتعويض عن التمييز السابق وذلك من خلال إجراءات نشيطة لضمان الفرص المتساوية كما في التعليم والتوظيف.

ويخرس دعواته للحسومات في الإنفاق الاجتماعي. في العام ١٩٩٦، كان الجمهوريون سيلغون وزارة التعليم في الولايات المتحدة. وهم يوسعونها الآن. ومع ارتفاع أعداد المهاجرين الهسبان، ومع مصير الأصوات الهسبانية هي الأصواتَ الحاسمةَ في الولايات المحورية، فإن جدول أعمالهم سيصير هو جدول أعمال أمريكا. إن هذا الأمر يحدث منذ حين. ففي العام ٢٠٠٠ فإن اتحاد العمل الأمريكي ومجلس المنظمات الصناعة (AFL-CIO)الذي سبق أن عارض الهجرة الضخمة الجماعية حوّل نفسه وصار يعمل للعفو عن الغرباء غير الشرعيين، مؤملا أن يوقع ملايين العمال غير الشرعيين ليكونوا أعضاء في الاتحاد يدفعون المستحقات له. والبيت الأبيض تحت بوش - في قرارات سياساته وتعييناته - تتبه تنبها حادا للصوت الهسباني، وهو في الأغلب على حساب المبادئ المحافظة.

كوبيك أمريكا؟

جورج بورجاس وهو اقتصادي من هارفارد، درس القضية، فلم يجد فوائد اقتصادية صافية من الهجرة الضخمة من العالم الثالث. فالتكاليف المضافة للمدارس، والرعاية الصحية، والرعاية الاجتماعية، والأمن الاجتماعي، والسجون، زائدا الضغط المضاف على الأرض، والماء، ومصادر الطاقة، تفوق الضرائب التي يسهم بها

المهاجرون. ويقدر المكتب القومي للبحث الاقتصادي كلفة الهجرة بمبلغ (٤, ٨٠) ثمانين بليونا وأربعة أعشار بليون دولار في العام ١٩٩٥[٥٩]. ويقدر الاقتصادي دونالد هدل من جامعة رايس أن التكلفة السنوية الصافية للهجرة سوف تصل إلى مبلغ (١٠٨) مائة وثمانية بلايين دولار بحلول العام ٢٠٠٦.[٦٠] ما هي إذن المنافع التي تبرر المخاطر التي نجازف بها لبلقنة أمريكا؟

إحصاء العام ٢٠٠٠ كشف ما أحس به الكثيرون. فلأول مرة منذ قيام الدولة، يشكل البيض في كاليفورنيا أقلية. وهروب البيض قد بدأ. في التسعينات من ١٩٩٠، زادت كاليفورنيا ثلاثة ملايين نسمة، ولكن عدد سكانها من الأنجلو فعلا "هبط نصف مليون تقريبا... مدهشا العديد من علماء السكان."[٦١] وفقدت مقاطعة لوس أنجليوس (٤٨٠, ٠٠) أربعمائة وثمانين ألف نسمة من الشعب الأبيض. وفي الرحيل، فقدت قلعة الجمهوريين في مقاطعة أورنج نسبة (٦) ستة بالمائة من سكانها البيض. وقال وليام فولتون، وهو زميل باحث في مركز دراسات جامعة كاليفورنيا الجنوبية: "لم يبق بوسعنا بعد الآن أن نتظاهر بأننا ولاية طبقة وسطى بيضاء."[٦٢] وينظر كيفن ستار، مكتبيّ الولاية، إلى هسبنة كاليفورنيا بوصفه أمرا طبيعيا لا مفر منه:

هيمنة الأنجلو لم تكن إلا مرحلة متقطعة في قوس هوية كاليفورنيا،

المتدة من وصول الإسبان... لقد كان الطبيعة الهسبانية لكاليفورنيا موجودة طوال الوقت، وأغرقت مؤقتا بين الثمانينيات من ١٨٨٠ وحتى الستينيات من ١٩٦٠، ولكن ذلك كان انحرافا. هناك توكيد على الدي إن إي السكاني الجِبلّي من النمط الأطول، وهو جزء من المتصل الكاليفورني -المكسيكي.[٦٣]

المستقبل يمكن التنبؤ به: مع مغادرة مائة ألف من الأنجلو من كاليفورنيا في كل عام، ومع ارتفاع السكان الآسيويين بنسة (٤٢) اثنين واربعين بالمائة في عقد واحد، ومع كون نسبة(٤٣) ثلاثة وأربعين بالمائة من جميع الكاليفورنيين تحت سن الثامنة عشرة هم من الهسبان، فإن أكبر ولاية أمريكية في طريقها إلى أن تصير ولاية من العالم الثالث بشكل غالب.[٦٤]

لا أحد يعلم كيف سينتهي هذا الأمر، ولكن كاليفورنيا يمكن أن تصير كوبيك ثانية، ولها مطالب من أجل الاعتراف الرسمي بثقافتها وبهويتها الهسبانية المنفصلة والفريدة - أو تصير ألستر ثانية. ومثلما طالبت شين فين بعلاقات خاصة مع دبلن وحصلت عليها، فقد يطالب المكسيكيون الأمريكيون بعلاقة خاصة مع بلدهم الأم، وبالمواطنة المزدوجة، وبالحدود المفتوحة، وتصويت التمثيل في التشريع المكسيكي. والرئيس فوكس يصادق على هذه الأفكار. ومع كون كاليفورنيا تمسك بنسبة (٢٠) عشرين بالمائة من الأصوات الانتخابية اللازمة لرياسة الولايات المتحدة، ومع كون الأصوات

الهسبانية حاسمة في كاليفورنيا، فأي مرشح رئاسي سيغلق الباب أمام مثل هذه المطالب؟

قال الرئيس زيديللو: "لقد أعلنت بفخر أن الأمة المكسيكية تمتد لما وراء الأرض التي تحيط بها حدود المكسيك وأن المهاجرين المكسيكيين جزء مهم - بل مهم جدا- من هذا الامتداد."[٦٥] ويوافق خلفه على ذلك. والمرشحون لمنصب الرئيس في المكسيك الآن يجمعون المال ويقومون بالحملات النشيطة في الولايات المتحدة. ويستكشف الحاكم غراي ديفيس خططاً لجعل يوم الخامس من مايو، وهو ذكرى نصر يواريز في العام ١٨٦٢ على الجيش الفرنسي في بويبلا، يوم عطلة في كاليفورنيا. ويقول ديفيس: "في المستقبل القريب سينظر الناس إلى كاليفورنيا والمكسيك بوصفها منطقة رائعة واحدة."[٦٦] ربما نستطيع أن نسميها أزتلان.

لم تبق أمريكا المجتمع الثنائي العرق في العام ١٩٦٠ الذي كافح لمحو الانقسامات وإغلاق الفجوات في أمة نسبة (٩٠) تسعين بالمائة منها من البيض. نحن اليوم نموّه المطالب الحقودة المنافسة لبلاد متعددة الأعراق، ومتعددة الإثنيات، ومتعددة الثقافات....[٦٧]

اليوم هناك(٢٨,٤) ثمانية وعشرون مليوناً وأربعة أعشار المليون في الولايات المتحدة ولدوا أجانب عنها. نصفهم من أمريكا اللاتينية والكاريبي، وربعهم من آسيا .والباقي من أفريقيا، والشرق

الأوسط، وأوروبا. واحد من كل خمسة من النيويوركيين والفلوريديين ولد أجنبيا، مثلما أن واحداً من كل أربعة من الكاليفورنيين ولد أجنبيا كذلك. مع كون (٨,٤) ثمانية ملايين وأربعة أعشار المليون مولودين أجانب، ومع عدم بناء أي مصنع طاقة جديد في عقد من الزمان، فلا عجب، ولو قليل، من أن تواجه كاليفورنيا نقصاً في الطاقة، وفقدا في الطاقة. مع هجرة بلا نهاية، سوف تحتاج أمريكا إلى توسع لا نهائي في مصادر الطاقة - طاقة كهرومائية ومحروقات من باطن الأرض (زيت، وفحم، وغاز)، وطاقة نووية. والخيار الوحيد هو اطفاءات الأنوار، وتخفيضات الأنوار، وخطوط بلا نهاية عند المضخة.

في التسعينات من ١٩٩٠ كان المهاجرون وأطفالهم مسؤولين عن نسبة (١٠٠) مائة بالمائة من نمو السكان في كاليفورنيا، ونيويورك، ونيوجيرسي، وإلينوي، وماساشوسيتس، وأكثر من نصف نمو السكان في فلوريدا، وتكساس ومتشيغان وماريلاند.[٦٨] ومع كون الولايات المتحدة تخصص معظم تأشيرات المهاجرين لأقارب القادمين الجدد، فإن من الصعب على الأوربيين أن يأتوا، بينما توجد قرى بأكملها من السلفادور الآن هنا.

ويمكن رؤية نتائج الانحياز للعالم الثالث في الهجرة في إحصاءاتنا الاجتماعية. فالعمر المتوسط للأوربيين - الأمريكيين هو

٣٦، وللهسبان هو ٢٦. والعمر المتوسط لكل المولودين أجانب هو ٣٣، وهو أخفض بكثير من عمر الجماعات الإثنية الأمريكية الأسن من مثل الإنجليز وهو ٤٠، والاسكتلنديين - الايرلنديين وهو ٤٣. هذه الإحصاءات الاجتماعية تثير سؤالا: هل حكومة الولايات المتحدة بقيامها بإبعاد ما يصل نادرا إلى أن يكون نسبة (١) واحد بالمائة من عدد يقدر بأحد عشر مليون غريب غير شرعي في كل عام تفشل في واجبها الدستوري لحماية حقوق المواطنين الأمريكيين؟[٦٩] أنظر:

- ثلث المهاجرين الشرعيين الذين يأتون إلى الولايات المتحدة لم ينهوا دراسة المرحلة الثانوية. ونحو نسبة (٢٢) اثنين وعشرين بالمائة لم يحصلوا حتى على المرحلة المتوسطة، الدرجة ٩، مقارنة بنسبة أقل من (٥) خمسة بالمائة من المواطنين الذين ولدوا في البلد.[٧٠]
- أكثر من نسبة (٣٦) ستة وثلاثين في المائة من جميع المهاجرين، ونسبة (٥٧) سبعة وخمسين بالمائة ممن جاؤوا من أمريكا الوسطى، لا يكسبون عشرين ألف دولار في السنة. ومن بين المهاجرين الذين جاؤوا منذ العام ١٩٨٠ فإن نسبة (٦٠) ستين بالمائة ما تزال لا تكسب عشرين ألف دولار في السنة.[٧١]
- من بين أسر المهاجرين في الولايات المتحدة هناك نسبة (٢٩) تسعة وعشرين بالمائة تحت خط الفقر، وهي ضعف نسبة (١٤) أربعة عشر بالمائة في المولودين في البلد.[٧٢]

- استخدام المهاجر لطوابع الطعام، والضمان الاجتماعي المكمل، وبرامج غداء المدارس يسير بنسبة أعلى بنسبة (٥٠) خمسين بالمائة إلى نسبة (١٠٠) مائة بالمائة مما يستخدمه المولود في البلد.[٧٣]
- قدرت وزارة العمل في إدارة كلينتون أن نسبة (٥٠) خمسين بالمائة من خسائر الأجور الحقيقية التي استمرت لدى الأمريكيين منخفضي الدخل تعود إلى الهجرة.[٧٤]
- بحلول العام ١٩٩١، مثّل الرعايا الأجانب نسبة(٢٤) أربعة وعشرين بالمائة من جميع الاعتقالات في لوس أنجيلوس ونسبة (٣٦) ستة وثلاثين بالمائة من كل الاعتقالات في ميامي.[٧٥]
- في العام ١٩٨٠، آوت السجون الاتحادية وسجون الولايات تسعة آلاف مجرم غرباء. ومع العام ١٩٩٥ حلق الرقم إلى تسعة وخمسين ألف مجرم غرباء، وهذا الرقم لا يشمل على الغرباء الذين صاروا مواطنين أو المجرمين الذين أرسلوا من كاسترو في جسر الزوارق من ماريل.[٧٦]
- بين العام ١٩٨٨ والعام ١٩٩٤ تضاعف أكثر من ثلاثة أضعاف عدد الغرباء غير الشرعيين في سجون كاليفورنيا، وذلك من خمسة آلاف وخمسمائة سجين إلى ثمانية عشر ألف سجين.[٧٧]

ولكن ليس في هذه الإحصاءات المذكورة أعلاه ما يثبت على

المهاجرين من أوروبا. وبعض الإحصاءات، عن التعليم المنخفض، على سبيل المثال، لا تنطبق على المهاجرين من آسيا.

ومع ذلك، فالهجرة الضخمة من بلاد العالم الثالث الفقير أمر "جيد للأعمال، " خصوصا الأعمال التي تستخدم أعداداً كبيرة بأجور منخفضة. في ربيع العام ٢٠٠١، أصدرت لجنة العمل السياسي للأعمال الصناعية (BIPAC) أوامر المسير من أجل الحشد الجوهري."[٧٨] وقالت صحيفة وول ستريت جورنال إن الشركات (٤٠٠) الأربعمائة ذات الأسهم الصناعية المضمونة، و(١٥٠) المائة والخمسون جمعية تجارية "سوف يدعون إلى الاستمرار بتطبيع التجارة مع الصين... وتخفيف قيود الهجرة لمواجهة حاجات العمل ..."[٧٩] ولكن ما هو جيد لأمريكا الشركات ليس بالضرورة جيدا لأمريكا الوسط. عندما يصل الأمر إلى الحدود المفتوحة، فإن مصالح الشركات والمصالح القومية لا تتطابق، إنها تتصادم . فإذا ما عانت أمريكا كسادا مستمرا، فإننا سنكتشف ما إذا كانت بوتقة الانصهار ستستمر بالعمل أو تتوقف.

ولكن الهجرة الضخمة تثير مزيدا من القضايا الحرجة وهي أكثر من الوظائف والأجور، لأن الهجرة في نهاية الأمر تتصل بأمريكا نفسها.

ما هي الأمة؟

معظم الناس الذين يغادرون أوطانهم ليأتوا إلى أمريكا، سواء كانوا من المكسيك أم من موريتانيا هم ناس طيبون، وناس محترمون. وهم يبحثون عن الحياة الفضلى نفسها التي بحث عنها أسلافنا عندما جاؤوا إلى أمريكا. وهم يأتون ليعملوا، وهم يطيعون قوانيننا، وهم يستمتعون بحرياتنا، وهم يستسيغون الفرص التي تملك أن تعرضها أعظم أمة على الأرض، ومعظمهم يحب أمريكا، وكثيرون يرغبون في أن يكونوا جزءا من العائلة الأمريكية. ويمكن للمرء أن يقابل هؤلاء القادمين الجدد في كل مكان. ولكن الرقم القياسي من المولودين أجانب عن أمريكا القادمين من ثقافات لا يجمعها إلا القليل مع الأمريكيين يثير سؤالا مختلفا: ما هي الأمة؟

يعرف بعضهم الأمة بأنها شعب واحد يشترك في الأسلاف، واللغة، والأدب، والتاريخ، والتراث، والأبطال، والتقاليد، والعادات، والأعراف، والمعتقد، شعب عاش معا عبر الزمان على الأرض نفسها تحت الحكام أنفسهم. هذه فكرة الدم والأرض عن الأمة. ومن بين الذين أكدوا هذا التعريف وزير الخارجية جون كوينسي آدمز الذي وضع هذه الشروط على المهاجرين: " يجب عليهم أن ينسلخوا من الجلد الأوروبي، وألا يستعيدوه أبدا. ويجب عليهم أن ينظروا إلى الأمام إلى ذريتهم أكثر مما ينظرون إلى الخلف إلى أسلافهم."[٨٠]

وتيودور روزفلت الذي أرعد ضد "الأمريكية - المفصولة بخط وصل(*) يشارك آدمز رأيه على ما يبدو. وودرو ويلسون وهو يخاطب الأمريكيين المجنسين حديثا في العام ١٩١٥ في فيلاديلفيا رجّع في قوله أصداء تيودور روزفلت: "إن الإنسان الذي يفكر بنفسه بصفتة منتمياً إلى مجموعة قومية معينة في أمريكا ما يزال عليه أن يصير أمريكيا."[٨١] هذه الفكرة عن الأمريكيين بصفتهم شعبا منفصلاً وفريدا، جاء التعبير عنها لأول مرة على لسان جون جاي في (الفيدراليست)(**):

> كانت العناية مسرورة في أن تعطي هذه البلاد الواحدة المتصلة إلى شعب واحد متحد - شعب منحدر من الأسلاف أنفسهم، يتحدث اللغة نفسها، ويؤمن بالدين نفسه، ومرتبط بمبادئ الحكم نفسها، ومتشابه جدا في أخلاقه وعاداته، وهو، بفضل مجالسه المشتركة، وأسلحته، وجهوده، يقاتل جنبا إلى جنب طوال حرب طويلة ودامية، قد أسس بشكل نبيل حريته العامة واستقلاله.[٨٢]

ولكن هل يستطيع أحد اليوم أن يقول أننا - نحن الأمريكيين- "شعب واحد موحد؟"

(*) «كأن يكتب أمريكي - مكسيكي مثلاً»

(**) مجموعة من ٨٥ مقالة تدافع عن الدستور الأمريكي. كتبها اليكاسندر هاملتون مع جيمس ماديسون وجون جاي. ونشرها في ١٧ تشرين /أكتوبر ١٧٧٧ في ١٢ نيسان/إبريل ١٧٧٨. لذلك تركتها وكأنها اسم علم.

نحن لم ننحدر من الأسلاف أنفسهم. ونحن لم نبق نتكلم اللغة نفسها. ونحن لا ندين بالدين نفسه. ونحن لم نبق ببساطة بروتستانت، وكاثوليك، ويهود مثلما وصفنا عالم الاجتماع ول هيربرغ في مقالته المعنونة: مقالة في علم الاجتماع الديني الأمريكي في العام ١٩٥٥.[٨٣] ونحن الآن بروتستانت، وكاثوليك، ويهود، ومورمون، ومسلمون، وهندوس، وبوذيون، وتاويون، وشنتويون، وسانتيرا، وعصر جديد، وفودو، ولاأدريون غنوصيون، وملاحدة، وانسانيون، وراستافاريون، وويكان. وحتى ذكر اسم عيسى المسيح في حفل التنصيب من قبل الواعظين الذين اختارهم السيد بوش ليقدموا الابتهالات أثار غضب وصيحات بين نوع "غير حساس"، و"منفصل"، و "إقصائي."[٨٤] وطربت الافتتاحية في نيو ريبابلك تلك بهجماتها على هذه "الضربات المسيحية الساحقة" من منصة التنصيب.[٨٥] نحن لم نبق متفقين على وجود الله ولا على بدء الحياة، وماهية الأخلاقي وغير الأخلاقي. نحن لسنا "متشابهين في أخلاقنا وعاداتنا." نحن لم نقاتل أبدا "جنبا إلى جنب طوال حرب طويلة دامية." أما أعظم الأجيال فقد فعل، ولكنه يمضي. وإذا كان الباقون منا يتذكرون "حربا طويلة ودامية." فقد كانت فيتنام، ونحن لم نكن فيها جنبا إلى جنب.

نحن نبقى "مرتبطين بمبادئ الحكم نفسها." ولكن مبادئ الحكم المشتركة غير كافية لتمسكنا معا. لقد كان الجنوب "مرتبطا

بمبادئ الحكم نفسها" مثله مثل الشمال. ولكن ذلك لم يوقف الجنوبيين عن القتال لمدة أربع سنوات في حرب دامية ليكونوا أحراراً من إخوانهم الشماليين.

في تنصيبه، رفض الرئيس بوش رؤية جاي: "أمريكا لم تتوحد أبدا بالدم أو الميلاد أو الأرض. نحن تضمنا المثل التي تحركنا إلى ما وراء خلفياتنا، وترفعنا فوق مصالحنا، وتعلمنا ماذا يعني أن تكون مواطنا."[٨٦] وفي كتابه تفريق وحدة أمريكا يوافق آرثر شليسنجر مع فكرة بوش عن أمة، موحدة باعتقاد مشترك في عقيدة أمريكية توجد في تاريخنا وأعظم وثائقنا: تصريح الاستقلال، والدستور، وخطاب غيتسبرغ. ويكتب شليسنجر:

> العقيدة الأمريكية تصور أمة مكونة من أفراد يتخذون خياراتهم وهم مسؤولون أمام أنفسهم، وليست أمة قائمة على مجتمعات إثنية مصونة الحرمة. لأن قيمنا ليست مادة أو نزوة وظرفا عرضيا. إن التاريخ أعطاها لنا. إنها مركوزة في خبرتنا القومية، وفي وثائقنا القومية العظيمة، وفي أبطالنا القوميين، وفي تقاليدنا الشعبية، وفي تراثنا، وفي معاييرنا. [قيمنا] تعمل من أجلنا، ولهذا السبب، فإننا نعيش ونموت بهذه القيم.[٣٤٠]

ولكن الأمريكيين لم يبقوا متفقين على القيم، أو على التاريخ أو على الأبطال. وما يراه نصف الأمريكيين ماضيا مجيدا ينظر له النصف الآخر بوصفه ماضيا مخجلا وشريرا. كولومبوس،

وواشنطون، وجيفرسون، وجاكسون، ولينكولن، ولي -كلهم أبطال لأمريكا القديمة - وكلهم تحت الهجوم. وهذه الكلمات الأمريكية إلى أقصى حد وهي المساواة والحرية، تعني اليوم معاني مختلفة للأمريكيين المختلفين. وبالنسبة إلى "وثائقنا القومية العظيمة" فإن قرارات المحكمة العليا التي تفسر دستورنا لم توحدنا، وطوال أربعين عاما قسمونا، وبمرارة، حول الصلاة في المدرسة، والاندماج، ونقل الطلاب، وحرق العلم، والإجهاض، والكتابة العارية والوصايا العشر.

وكذلك الإيمان بالديمقراطية غير كاف ليمسكنا معا. نصف الأمة لم يهتم ولا حتى بالتصويت في انتخابات الرياسة عام ٢٠٠٠، وثلاثة من خمسة لا يصوتون في سنة الانتخابات التي لا يكون فيها انتخابات للرياسة. والملايين لا يستطيعون تسمية أعضاء مجلس الشيوخ (الكونجرس) الذين يتبعون لهم، أو الشيوخ (السيناتورات) أو قضاة المحكمة العليا. إنهم لا يأبهون.

وسواء أكان المرء متمسكا بفكرة الدم والأرض عن الأمة، أو بفكرة العقيدة، أو بكلتا الفكرتين، فما من أمة منهما هي التي كانت موجودة في الأربعينات من ١٩٤٠، أو الخمسينات من ١٩٥٠، أو الستينات من ١٩٦٠. نحن نعيش في البلاد نفسها، ونحكم بالقادة أنفسهم، ولكننا هل نستطيع أن نقول بصدق إننا مازلنا أمة واحدة وشعباً واحداً؟

من الصعب أن نقول نعم، ومن الأصعب أن نعتقد أن أكثر من مليون مهاجر في كل عام، يأتون من كل بلد على سطح الأرض، وثلثهم يدخل عنوة سوف يعيدون تشكيل الروابط لأمتنا المتفرقة الوحدة. لقد حذر جون ستيورات ميل من أن " المؤسسات الحرة تلي المستحيل في بلد مكون من قوميات مختلفة. بين شعب بدون شعور الأخوة، خصوصا إذا كان أفراده يقرؤون ويتحدثون لغات مختلفة، فإن الرأي العام الموحد الضروري لعمل الحكومة التمثيلية لا يمكن أن يوجد."[٨٨]

نحن على وشك أن نكتشف أن ميل كان على حق، أو أنه لم يكن كذلك